الفصل السادس :

القـــوة عـــمـــاد العـمـــريـة

obeikandl.com

obeikandl.com

القوة عماد العمريةُ

إذا تأملنا معانى كلمة (قوى) فى أى معجم من المعاجم ، فسنجد أن كلَّ معنى من تلك المعانى آخذ من صفات عمر بسبب ، أو أن عمرَ آخذ منها بسبب وكأن لم توضع تلك المعانى للكلمة إلا لتوفى عمر حقَّه من القوة ، أو لم يحز عمرُ من الصفات إلا ليجسد تلك المعانى .

فمن معانيها : ضد الضعف .

ومن معانيها : المؤثر الذى يغير .

ومن معانيها : مبعث النشاط والنمو والحركة .

ومن معانيها : الاعتدال على الأمر والدوام والثبات .

ومن معانيها : وفَّى حقه .

ومن معانيها : تقويم المعوج .

ومن معانيها : حساب الزمن بالسنة والشهور والأيام .

ومن معانيها : العدل .

ومن معانيها : عماد ونظام الشىء .

ومن معانيها : ولاية الأمر .

ونجد أنه لا معنى من تلك المعانى إلا وتجد صلة وثيقة بينه وبين عمر ، فإذا أطلقنا لفظ القوة وقصدنا : ضد الضعف ، وجدنا أن عمر عنوان لهذا المعنى ، فهو قوى فكرًا وقوى وجدانا ، وقوى نفسا وقوى جسمًا ، وإن بحثت فى شخصيته عن موطن ضعف فسوف يعجزك هذا البحث ولن تظفر من خلاله بطائل ، ولا نريد أن نقول إن عمر خالٍ من

obeikandl.com

مواطن الضعف ، فلو قلنا ذلك لسلبنا صفة الإنسانية منه وخير له وخير لنا أن نعترف بصفة الضعف له وكذلك صفة الإنسانية ، من أن نعترف بصفة القوة لنسلبه صفة الإنسانية ، فهو رجل كان يشغله مناطق ضعفه فكان أشد ما يكون تقوية وتحصينا لتلك المناطق ، حتى إنها لتستحيل إلى مراكز قوة وبأس . ولكن لا ينبغى أن يخدع الناظر أن وراء هذه القوة والبأس رصيد هائل من الرحمة واللين : " ويكون الرجل خشنًا وهو أعطف خلق الله على الضعفاء بل كثير ما تكون الخشونة الظاهرة نقابًا يستتر به الرجل القوى فرارًا من مظنة الضعف الذى يساوره من قبل الرحمة ، فلا تكون مداراة الرقة إلا علامة على وجودها وحذرًا من ظهورها " [1] .

وأشد ما يكون الرجل ضعفًا أمام المرأة ، مع تفاوت درجات هذا الضعف من رجل إلى آخر ، وشىء طبيعى أن يكون الرجل ضعيفاً أو مستسلما إزاء المرأة فماذا سيفعل بقوته وبأسه أمام هذا المخلوق الضعيف ، لاسيما إذا كانت باكية أو شاكية، وهاتان أفضل حالتين تصطنعهما أو تتقنهما المرأة لتستدر عطف وحنان الرجل : " أما المرأة الشاكية أو الدامية ، إذا واجهتْ ذلك البطل القوى فما حاجته إلى قوته ونضاله ؟وما أحرى تلك القوة أن تهدأ فى مكانها ، كأنها هى الخليقة الخفية التى لم تخلق ، وليس لها صوت مسموع ، وما أقربها إذن إلى أن تخجل من إيذائها وتندم على قسوتها وتثوب إلى التوبة والخشوع وهما من لباب الدين "[2]

وأدرك عمر – وهو الإنسان – أن الضعف أمام المرأة ، شىء طبيعى ، تحتمه طبيعةُ الرجل القوية من ناحية ، وتفرضه طبيعة المرأة الضعيفة من ناحية أخرى وإنه قد يؤتى

١- عبقرية عمر - عباس محمود العقاد (٣٩)
٢- المرجع السابق - (٤١)

openkanal.com

من تلك الناحية ، فأقام الكثير من الحواجز والحجب كى يقوى من أمر تلك الجهة ، ويحول بين ضعفه وولوج المرأة إليه منها . وكثرة الحواجز والحجب دليل على الضعف وليستْ دليلا على القوة : " وأكثف ما تكون الدروع أرق ما يكون الموضع الذى يليها وأخوفه من الإصابة فانظر أين الموضع الحصين المحمى فهنالك الموضع اللين الذى يخاف عليه ، ولا يخدعنك عن ذلك خادع من إظهار أو تظاهر غير مشعور به ، وغير مقصود . أين أكثف ما تكاثفتْ الغلظةُ فيه من درع عمر التى عنيناها ، المرأة ولا نزاع " [1] .

ولأن الرجل - أى رجل - لا يجد مبررًا للاعتصام بقوته وبأسه أمام المرأة لذا تنقلب القوة هنا إلى ضعف ، ولأن المرأة تجد الرجل أصبح أعزل أمامها من قوته وبأسه . تلجأ بحكم المنطق والطبيعة - إلى الاستحواذ والسيطرة ، فها هو سجانها، وها هو مالكها ، وها هو سيدُها قد أصبح طوع بنانها ، وتلجأ إلى الأسلحة التى زودتها الطبيعةُ بها من مكرٍ ودهاءٍ وإغراء ولين ونعومة ورقة ، فينقلب الضعفُ إلى قوة .

لذلك كان عمرُ شديدًا على المرأة ، وشديدًا على نفسه منها ، وكان على حذر من مكرهن وخداعهن ، ولذلك أوصى : " عليكم بالأبكار لأنهن أكثر حبًّا وأقل خبًّا " وخشى على العرب وهم أولاد الصحراء الذين تعودوا الخشونة ، وألفوا البداوة ، من النساء الأجنبيات بنات الحضارات اللائى تعودن على الحياة الرخية الناعمة وأتقنَّ أساليب كثيرة لإغواء الرجل والتأثير والسيطرة عليه فقال : " فى نساء الأعاجم خلابة فإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم " .

١- المرجع السابق - (٢١٩)

وبداية سيطرة المرأة على الرجل أن تتدخل فى صميم عمله وشئونه ، وأن يكون رأيها هو الغالب ، وأمرها هو النافذ ، ولم يعجبه موقف الأنصار من نسائهم حينما هاجر إلى المدينة ، فهو يعلم أن اندفاع المرأة فى التحكم والسيطرة لا يقف عند حد فهى كائن ظمآن بل محروم من السيطرة والتحكم ، فإن وجدت إلى ذلك سبيلا ، فلا هى قانعة بما أسلس لها الرجل من قياده ، وهى مقتنعة بما ملكته من أمر الرجل يقول " .... كنا معشر قريش نغلب النساء ، فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار ، وصحتُ على امرأتى فراجعتنى فأنكرتُ أن تراجعنى . قالتْ : ولم تنكر أن أراجعك ؟ ... فو الله إن أزواج النبى ﷺ ليراجعنه وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل ، فأفزعنى ".

رجل عاش عمره كلفا أن يضع حدودًا للأمور ، وألا يجعل أمرًا يجور على أمرٍ كل شىء عنده بالقسطاس المستقيم ، فللرجل حدود ينبغى ألا يتجاوزها من ناحية المرأة ، ألا يظلمها وألا يجور على حق من حقوقها ، ولا يظن ظان أن عمر كان متحجرَ القلبِ من ناحية المرأة ، أو أنه كان يعاديها ، ولكنه كان ينظر إليها كما ينظر إلى كل شىء ، ويضعها فى إطارها اللائق بها والمناسب لها ، بدون إفراط أو تفريط ، وهو لا يعتصم بكبرياء الرجولة وأنفة العربى ، وسطوة الحاكم من أن يسفه رأى المرأة بل قبل رأيها وسدده ، وعدل عن رأيه: " عن مسروق بن الأجدع قال ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ﷺ فخطب الناس ، فقال يأيها الناس ما أكثاركم فى صدقات النساء ! فقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه وإنما الصدقات ما بين أربعمائة فما دون ذلك ، ولو كان الأكثار فى ذلك تقوى أو مكرمة لم تسبقوهم إليها . فلأعرفن ما زاد رجل فى صداق امرأة على أربعمائة درهم

قال : ثم نزل فاعترضته امرأةٌ من قريش . فقالت : يا أمير المؤمنين ، أنهيتَ الناس أن يزيدوا النساء فى صدقاتهن على أربعمائة درهم ؟

قال : وما ذاك ؟

قالت : أو ما سمعتَ ما أنزل الله فى القرآن ؟

قال : وأى ذلك ؟

قالت : أو ما سمعتَ الله يقول : " وءاتيتم إحداهن قنطارًا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينًا ".

فقال عمر : اللهم غفرًا ، كل إنسان أفقه من عمر ! .

ثم رجع فركب المنبر ثم قال أيها الناس ، إنى كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء فى صدقاتهن على اربعمائة درهم ، فمن شاء أن يعطى من ماله وأحب وطابت به نفسه فليفعل " .

رجلٌ يؤمن بأن للمرأة شخصيتها المستقلة ، ورأيها السديد ، وحريتها أن تناقش وتراجع الحاكم ، وتخالفه الرأى طالما لديها الدليل والحجة . وشهد لها بذلك، ليس قولا ولكن فعلا ، صعد المنبر ورجع عن رأيه . فهى مخلوق له احترامه وتقديره طالما حازتْ على الصفات والمؤهلات التى تستوجب هذا الاحترام والتقدير بمنحها ما تستحق ، ولكنه فى نفس الوقت لا يسمح لها أن تتجاوز حدودها أو تطالب بما ليس لها بحق من السيطرة والتحكم والاستبداد وبرأيها ، بدون سند من الحق والمنطق .

ومن خلال التقوية المتعمدة والتحصين الدائم لهذه الناحية ، وجدنا أن النساء يهبن عمر أكثر من الرجال ، بل يخفنه ويزهدن فى التزوج به ، وهو أكبر وأعلى رجل فى الدولة فقد خطب عمر أم كلثوم بنت أبى بكر إلى أختها أم المؤمنين (عائشة) رضى الله عنها

فقالت له : الأمر إليك . ثم سألتْ أختها فأبته وقالت : لا حاجة لى فيه . فزجرتها قائلة أترغبين عن أمير المؤمنين ؟

قالت : نعم إنه خشن العيش شديد على النساء .

ولم يكن عمر شديدًا على النساء لأن فيه فظاظة وغلظة ، ولكنه شديد على ما يمثلنه من غواية وفتنة ، أو إن شدته كانت نوعًا من الوقاية والحماية والرقابة من أن يتسلل إليه ضعفٌ أو وهنٌ من ناحية المرأة وهو الرجلُ القوى .

والأولاد أيضًا يمثلون نقطة ضعف ، وكان عمر أقوى ما يكون أمام هذا الحب الغريزى ، حب الأب لأولاده ، هذا الحب الذى قد يؤدى إلى فتنة الإنسان فى دينه ويجعله يضحى بكل شىء فى سبيل إرضائهم وكثيرا ما تسرب الفسادُ إلى الحاكم ومن ثمَّ إلى الحكم من ذوى الحاكم وأقربائه . وقد يكون عالمًا بهذا الأمر أو فى غفلة عنه ، أيًّا ما كان الأمر فإن تلك ناحية قد يؤتى منها الحاكم ، وكون عمر هو الحاكم لم يكن نعمةً لأولاده ولأقربائه ، بل لا نبالغ إذا قلنا إنه كان نقمة ووبالاً عليهم "ولهذا كان يجمعهم إذا نهى الناس عن حوزة حق من الحقوق فيبلغهم أنه قد نهى عنه ويذكرهم (أن الناس ينظرون إليكم نظرَ الطير إلى اللحم) ويقسم لهم لئن فعله أحد منهم ليضاعفن عليه العقوبة" .

وكان يعنف ولاته ويشتمهم ، إن هو شعر أن هذا الوالى أو ذاك يجامل أو يحابى أولاده من أجله ، وخطابه لعمرو بن العاص ، حينما عرف أنه لم يقم على ابنه (عبد الرحمن) الحدَّ مثل بقية أفراد المسلمين ، وإنما أقام عليه الحد فى صحن داره .. تأمل الخطابَ الذى أرسله عمر إلى عمرو بن العاص والى مصر آنذاك :

"بسم الله الرحمن الرحيم ... من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصى ابن العاص:

عجبتُ لك يا بن العاص ولجرأتك علىَّ وخلاف عهدى .. فما أرانى إلا عازلك فمسىء عزلك . تضرب عبد الرحمن فى بيتك وتحلق رأسه فى بيتك ، وقد عرفتَ أن هذا يخالفنى ؟ .. إنما عبد الرحمن رجلٌ من رعيتك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين،ولكن قلتَ هو ولد أمير المؤمنين ، وقد عرفتَ ألا هوادة لأحد من الناس عندى فى حق يجب لله عليه فإذا جاء كتابى هذا فابعث به فى عباءة على قتب حتى يعرف سوء ما صنع) .

وحينما وصل عبد الرحمن جلده عمرُ وعاقبه من أجل مكانه منه ثم أطلقه

أرأيت قسوة مثل تلك القسوة من حاكم على وال من ولاته لأنه جامل ابن الحاكم بعض المجاملة ، إن تلك المجاملة فى عرف عمر جرأةٌ عليه ، وعقابها – فى عرفه أيضًا العزل وإساءة هذا العزل ، ويؤكد له أن ابنه عبد الرحمن لا يجب أن يعامل معاملة خاصة،فهو فرد من الرعية ، يسرى عليه كل ما يسرى على الرعية وحق الله مقدم على كل الحقوق ، ولا يجوز بأى حال من الأحوال تعطيل هذا الحق أو المساومة عليه .

ولا يظن ظان أن عمر كان يتخذ هذا النهج مع ابنه بدون أن يشعر بعاطفة الأبوة تملأ كيانه ، ولا يظن ظان أن عمر كان سعيدًا وهو ينزل العقاب بابنه للمرة الثانية ، فهو يشعر بشعور أى أب يرى ابنه فلذة كبده يعانى ويتألم ، وقد تكون الجلدة قبل أن تمزق أديم الابن كان يشعر بها الأب عمر تلهب جلده وتصليه نارًا ولكن كان عمر يتحمل ذلك لأن هناك عاطفتين ، عاطفة الأبوة وعاطفة الواجب وعاطفة الواجب هى سيدةُ الموقف ، أو قل إن هناك عواطف كثيرة تتنازع عمر ولكن العاطفة المسيطرة والمتحكمة فى بقية العواطف أو الإحساس الرئيسى هو الواجب والحق والعدل .

وإذا تواجد هؤلاء تصرف عمر وفق ما يمليه عليه واجبه كحاكم مسلم ، مراعيا حق الله ، متحريا العدل ، يفعل هذا متجردًا من كل المشاعر والعواطف التى قد تبعده وتجعله

يزيغ عن الطريق المستقيم ، وهو يفعل هذا ولا إرادة له فى ذلك ، لأن العمرية تتملك عمر بدون أن يتملكها ، وتملى عليه أحكامها ومعاييرها ، بدون أن يملك ردها أو منعها ، كما وضحنا ذلك فى فصل سابق .

فهو لا يجامل أحدًا على حساب الحق فى وقت تكون المجاملة مبررة إلى حدٍّ ما وموقفه من (جبلة بن الأيهم) يجلى هذا الأمر ، فقد كان جبلة أميرًا نصرانيا أسلم وتبعه عدد كبير من قومه ، وفى أثناء موسم الحج داس أعرابى ثوبة ، فقام (جبلة) بلطمه، وذهب الأعرابى شاكيًا جبلة ، فقضى (عمر) للأعرابى أن يلطم الأمير وعلى مشهد من الناس، كما فعل (جبلةُ) مع الأعرابى .

وهناك شواهد وأمثلة كثيرة يضيق المقام عن حصرها ، فهو مثل القلعة الحصينة التى تدور حولها باحثًاعن ثغرة هنا أو ثلمة هناك فلا تجد ، لأنه فى غاية التيقظ فى غاية الحرصِ ، لا يحب أن يُؤخذ على غرة أو غفلة أو خطأ أو زلة ويعييكَ أن تنتظر منه شيئا من هذا .

المؤثر الذى يغير :

الإسلام قبل عمر ليس هو الإسلام بعد عمر .

المسلمون قبل عمر ليسوا هم المسلمين بعد عمر .العالم قبل عمر ليس هو العالم بعد عمر .

عمر فارق بين أمرين ، فاصل بين مرحلتين .

ومعيارٌ أوحدٌ للحكم على العظيم ، أنه فى نهاية الأمر قدرة خارقة وإمكانية جبارة على التغيير إلى الأفضل .

وبمقدار شمول وعمومية وعمق وأصالة واستدامة هذا التغيير بمقدار عظمة الرجل .

obeikandl.com

أما أن الإسلام قبل عمر شيء وبعد عمر شيء آخر، فلا أحد يمارى فى ذلك لا سيما بعد أن سماه الرسول (بالفاروق).

كان الإسلام فى أول أمره ضعيفًا كتلك الزبالة الخافتة الضئيلة، وسط صحراء مظلمة واسعة تنذر سماؤها بالأعاصير والعواصف والأنواء التى تتجمع لتطفىء هذه الدفقة من النور، وتقضى عليها إلى الأبد.

وكان الإسلام فى حاجة إلى من يحيل تلك الزبالة إلى شلال من النور إلى قاصف من الرعد، يزلزل أركان الضلال وقواعد الباطل ... وقد كان عمر.

وقد أعز اللّٰهُ الإسلامَ بعمر، كما دعا رسول اللّٰه ﷺ بذلك، وكان عمر قد قعَّد للإسلام قاعدةً ينطلق منها من مكة إلى جميع بقاع العالم وبدأ الإسلام ينازل ويصارع بكل جرأة ويصدع بكل قوة، معلنًا عن نفسه بكل شرف، داعيا إلى الدخول فى نظامه بكل نبلٍ وعزةٍ

المسلمون قبل عمر ليسوا هم بعد عمر:

فقد شعروا أن هناك جدارًا قويًّا كان يسند الباطلَ ويقويه، قد انتقل إلى صفوفهم فأحسوا أنهم يستندون إلى ركن شديد، كانوا من قبله يستخفون من الإيمان، فإذا بهم يجهرون به من بعده، كانوا من قبله يصلون فى الخفاء فإذا بهم يعلنونها، بل ويصلون فى جوف الكعبة.

كانوا من قبله يهادنون الكفار ويخشونهم، فإذا بهم يتحدونهم ويواجهونهم ويصدعون بالدعوة: "يا رسول اللّٰه ألسنا على الحق إن متنا أو حيينا ؟

فقال ﷺ: بلى والذى نفسى بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم

قال: ففيم الاختفاء ؟ والذى بعثك بالحق لنخرجن.

فما لبث النبى أن خرج فى صفين ، أحدهما فيه عمر والآخر فيه حمزة ولهما كديد كأنه كد يدُ الطحين ، فدخلوا المسجد وقريش تنظر وتعلوها كآبة فلا يجرؤ سليط منها ولا حكيم أن يقترب من صفين فيهما هذان وسماه النبى يومئذ بالفاروق" .

منذ تلك اللحظة حسم الأمر بين الإيمان والكفر ، بين المسلمين والمشركين ويستطيع أىُّ إنسانٍ أن يستنتج أن الأمر صائر إلى الإسلام والمسلمين وما هى إلا مدة وجيزة ويتبع كل من يعادى ويعاند ويخاصم ويحارب الإسلام هؤلاء النفر القليل الذين يتقدمهم محمد ﷺ

وماذا يريد أى أصحاب دعوة جديدة أكثر من ذلك ؟

الإعلان عنها والجهر بها ، بل ويدخل صاحب الدعوة أهم معقل وحصن لقريش وهو المسجد الحرام حدث كل هذا بسبب رجل واحد ، هو عمر .

ولا نريد أن نسرف على عمر كثيرًا ، فإن أمر الدعوة كان سينتشر بعمر أو بدونه وأن الأمور صائرة إلى ما صارت إليه بعمر أو بغيره .

ولكن كفى بعمر فخرًا أن الأمور وهى صائرة إلى ما صارت إليه ارتبطت باسمه أو أنه هو الذى عجل بها أو أنه هو أول من اقترح ذلك ، أو أنه أول من اختار أسلوب المواجهة والتحدى ، هذا الأسلوب أعطى ثقة وقوة نفسية للمسلمين أهم إحساس كانوا فى مسيس الحاجة إليه ، شاهد من الواقع أنهم على حق ، وإذا كان هذا من شأنه أن يقوى المسلمين ويربط على قلوبهم ، فإنه فى نفس الوقت يضعف الكفار ، ويفل عزيمتهم ، ويجعل مقدمات الشك والريب يتسربان إلى نفوسهم أنهم على باطل وضلال .

حتى الهجرة التى تعتبر نوعًا من الفرار أو ضربًا من الهرب ، جعلها هذا الرجل نوعًا من التناطح والمجابهة : "قال على بن أبى طالب ﷺ عنه : ما علمتُ أن أحدًا من المهاجرين هاجر إلا متخفيًا ، إلا عمر بن الخطاب فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب

فرسه وانتضى أسهما واختصر عنزته ومضى قِبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها فطاف فى البيت سبعًا متمكنا ، ثم أتى المقام فصلى ، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة يقول لهم شاهتِ الوجوه ! ... لا يرغم اللّٰهُ إلا هذه المعاطس ! ... من أراد أن يثكل أمه أو يؤتم ولده أو يرمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى"

أنا هو ... أنا هنا ... وغدا سأكون هناك .

من يستطع أن يمنعنى فليتقدم .

إذن لم الفرار يا عمر ؟

ولم الهجرة ؟

ولم الهرب ؟

ومن قال إن الانتقال إلى المدينة فرارٌ وهربٌ ؟

فمنذ أن هاجر عمر بتلك الطريقة ، وعلى هذا الوجه ، لم يعد هناك فرارٌ أو هربٌ وإنما نوع من المناورة ، وإعادة ترتيب الصفوف ، نوع من نقل الجبهة من ناحية إلى ناحية أخرى ، تغيير فى نوعية المواجهة ولكن لم فعل ذلك عمر ؟

وما الفائدة التى عادت عليه ؟

ألم يكن فى حسبانه أن يتعرض له مجموعة من الرجال الأشداء يضربونه ويمنعونه من الهجرة ؟ وهو فرد وهم جماعة ، وكما يقولون فى الأمثال (الكثرة تغلب الشجاعة) ؟

نعم كان عمر يتوقع أن يتصدى له مجموعة من الرجال الأشداء ويكونوا عليه لبدًا ويصارعهم ويصارعونه ، وقد يغلبونه .

ولكن العُمرية التى تتملك عمر وتملى عليه أفكاره وتصرفاته لا تنظر إلى الأمر من تلك الزاوية ، ولكن بداية تتلمس طريق الحق وتقصده وتسير إلى نهايته لا تحيد عنه يمينًا

أو يسارًا ، ولا تستقرئ الواقع ولا تستنتج ما يترتب على استقراء هذا الواقع من نتائج على ضوئها يعدل سلوكه أو يغير من تصرفاته ، هذه الأمور بعيدة كل البعد عن ظن العُمرية لا بدائل ولا حلول ولا اختيارات .

هما بديلان لا ثالث لهما ، تواجه به كل ما يعن لها من معضلات ، الحق أو الموت فإما أن يهاجر مهاجرة صاحب حق على رغم أنوف الكفار ، وإما أن يموت ميتة تليق بصاحب الحق الذى لم يفكر لحظة فى أن يتخلى عن حقه

العالم بعد إسلام عمر أضيف إليه عظيم من طراز فريد ، أُثريتْ به الأخلاق والقيم والمبادئ ، اكتسبت الإنسانيةُ نموذجًا من النماذج الإنسانية الراقية ، فإذا تلمستِ الإنسانية أُرقى صورة من صور العدل لتعرضها على شعوبها لتطمح إليها وليتأسى بها الحكام ، ولتتعزى بها الشعوب فلن تجد ذلك إلا فى عمر

وإذا تلمست أرقى صورة من صور الديمقراطية فلن تجد هذا إلا فى عمر

وقس على ذلك كل تلك الجوانب والنواحى التى تفوق فيها عمر على الآخرين ليس هذا فحسب ، بل جعل كل أفعاله ومواقفه معايير تقاس بها ، أفعال ومواقف أرقى وأسمى أصناف البشر ، وعناوين مشرقة تندرج تحتها أشد ما تعتز به الإنسانية من صور الخير والعدل والجمال فى تاريخها الطويل .

عرَّف عُمر العالمَ كلَّه كيف يكون الحُكمُ عبئًا وأَرَقًا وسُهدا وعذابًا وأمانة ثقيلة يتمنى صاحبُه أن يخرج من تلك الدنيا لا له ولا عليه .

عرَّف عمرُ العالمَ كلَّه كيف يكون الحاكمُ فى غاية الشفقة والرفق والرحمة على الأطفال واليتامى والأرامل والفقراء والعجزة ، وكيف يكون فى غاية القسوة والشدة والغلظة على الظالمين والمفسدين والطغاة والجبابرة .

عرَّف عُمر العالمَ كلَّه كيف يساوى الحاكم بين أفراد رعيته بغض النظر عن ألوانهم أو جنسياتهم أو ديانتهم .

عرَّف عمر العالمَ كلَّه كيف يتنزه الحاكم ويتعالى ويتسامى عن شهواته ونوازعه وعواطفه ، ويتجرد من كل ما من شأنه أن يجعله يحيد عن الحق .

عرَّف عُمر العالمَ كلَّه كيف تكون العقيدة الصادقة الصحيحة هى مبعث كل تصرفات وأفعال الحاكم ، تمده بالقوة فى نصرة الحق ، بل تجعل الحق قوة تحطم وتسحق كل صور الضلال والباطل .

العالم كله قبل عمر كان يعانى نقصًا وانحرافا وخللا ... أما بعد عمر فقد أتم هذا النقص وقوم هذا الانحراف ، وجُبر هذا الخلل وكفى بعمر أن يوضع أمام أنظار العالم ليكون مدافعًا فى العصر الحديث – إن كان الأمر فى حاجة إلى من يدافع عن الإسلام وليد حض عن وجه الإسلام الناصع المشرق الوضاء كل فرية تُلصق زورًا ويهتانًا بالإسلام .

"جاهلى كسبه الإسلام فكسبه العالم الإنسانى كله إلى آخر الزمان ... ونفس ضائعة رُدتْ إلى صاحبها فعرف منها ما كان ينكر واطلع منها على ما كان يجهل ونفع بها أمته وأممًا لا تحصى وصنع بها الإسلام أعظم وأفخم ما تصنعه قدرة بناء وإنشاء ، حيثما كانت قدرة بناء وإنشاء .

ونظرتِ الأممُ فرأت كيف تعلو النفسُ الإنسانية حتى يحار فيها الإنسان وهو ريشة فى مهب النوازع والأشجان . رأت كيف يصبح العدل والحق طبيعة حياة وكيف يصبح مخلوق من اللحم والدم وكأنه لا يأكل طعامه ولا يروى ظمأه إلا ليعدل ويعرف الحق ، وكأنه لا يصحو ولا ينام إلا ليعدل ويعرف الحق ، وكأنه لا يتنفس الهواء إلا ليمتنع الظلم عن

الناس ، وكأنما العدل والحق دين عليه يطالبه به ألف غريم ، وهو وحده أقوى فى المطالبة بهما من ألف غريم" (١)

مبعث النشاط والنمو والحركة :

وماذا تكون القوة فى أوضح معانيها إن لم تكن القدرة الفائقة على النمو والحركة والتطور بهذا النمو من مرحلة إلى مرحلة أتم وأكمل من سابقتها ، ولم تنمُ وتؤسس دولة الإسلام – بداية – إلا فى عهد عمر ، نمو وتطور وتقدم وحركة مسرعة مطردة واتساع الدولة فى جميع نواحيها بالمعنى الحديث .

ونلاحظ إن الدول فى طور نشأتها ينصب اهتمامها على عنصر واحد من عناصر البناء ترى فيه عماد بنيانها ، تتفرغ له وتوجه كل طاقاتها وإمكاناتها لإتمامه والفراغ منه وقد تهمل بقية العناصر إيمانًا منها أنها ليستْ هامة ، على الأقل فى الوقت الحاضر وإرجاءها إلى وقت آخر لن يضر ، بل قد ينفع لأنه يصرف الجهد للانتهاء مما تراه هامًا وضروريا .

فبعض الدول ترى أن أهم شىء هو الدساتير ، لأنها تحدد واجبات وحقوق كل فرد من أفرادها بدءًا من الحاكم وانتهاء بالمحكومين ، وإنه متى وضح هذا الأمر وضح أين يكون الإفراط وأين يكون التفريط ، أين يكون التزام كل فرد بحدود دوره وأين يكون الطغيان والتعدى والتجاوز أين يكون الصلاح والمصلح وأين يكون الفساد والمفسد ، ثم يأتى بعد ذلك وبعد الفراغ من هذا الأمر ، طبقات البناء الأخرى.

١ - عبقرية عمر – للعقاد (٩٠ – ٩١) .

وبعض الدول ترى أن تأمين حدودها والفتوحات التى تقوم بها الجيوش وامتداد حدود الدولة شرقا وغربًا شمالا وجنوبًا أهم ما يسهم فى البناء بناءً قويًّا لأنه سيؤمن حدودها من ناحية ، ومن ناحية أخرى سيجلب لها موارد تساعد فى البناء والتشييد .

وبعض الدول ترى الانكفاء على ذاتها والانغلاق على كيانها حفاظًا على هويتها فهى لا تعمل على الاتساع والامتداد ، ولا تسمح بالاختراق والنفاذ إليها فلا شاغل يشغلها عن بناء كيانها بجهودها الذاتية غير طامعة أو طامحة أن تكون دولة عظمى أو امبراطورية مرهوبة الجانب يعمل لها العالم حولها ألف حساب

وفى كل الأمور السابقة يكون البناء فى جانب على حساب جانب آخر فإذا كان الاهتمام منصبًّا على ناحية ما ، فستجد أن هناك إهمالاً فى جانب آخر

ولا نستطيع أن نقول على أى من تلك الدول أنها نمت ، لأن النمو فى حقيقته لا يكون فى جانب على حساب جانب آخر ، وإنما البناء فى حقيقته خاصية تتسم بالكمال والتكامل ، مثل أعضاء الكائن الحى ، فلا أستطيع أن أقول إن كائنا ما قد نما إلا إذا كانت تلك الخاصية – النمو – تشمل جميع أعضاء الكائن الخارجية ولجميع أجهزته الداخلية ، نموًّا جسمانيا ونفسيا وعصبيًّا وروحيا وعقليا ، وكل هؤلاء متكاملون ومتجانسون ومتناغمون .

وأسباب سقوط الدول أو الحضارات ، أنها اهتمت بجانب على حساب جانب آخر أو سبب إفلاس الحضارات هو ذلك ، لذلك لا يجب أن نبهر بالتقدم الفائق والمذهل فى جانب ، بينما بقية الجوانب معطلة أو مهملة .

كل هذا أدركه عمُر... فإذا سألت . ما الشىء الذى كان يشغل اهتمام عمر ؟

أعيتكَ الإجابةُ ... لأن العُمرية تتسمُ بالشمول فى نظرتها للأمور وتفهم فهما حقا فلسفة النمو ، ولنعد قائمة على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر تمثل اهتماماته وانظر كيف تتسم بالشمول والتغطية لجميع نواحى وإدارات ومرافق الدولة .

- الاهتمام بجمع القرآن .
- الاهتمام بوضع الدساتير ، دستور القضاء ، دستور الحرب ، دستور الولاة
- إنشاء دواوين القضاء والإحصاء والخراج – البريد وبيت المال ومرابط الثغور إنشاء مصنع السكة لضرب النقود .
- تنظيم البلاد المفتوحة .
- أسس بيت الدقيق لإغاثة الجياع .
- تخطيط بعض المدن مثل الكوفة والبصرة .
- وضع قانون لمحاسبة الولاة ، إذا أثروا نتيجة مناصبهم .
- النظر بنفسه فى شكاية أفراد الرعية والتفقد لحال أفراد الرعية ليلا ونهارًا .
- الترشيد الشديد فى نفقات الدولة وعدم إهدار الموارد فيما لا جدوى منه
- أسس نظام الاستخبارات ، بأن يرسل أفرادًا إلى الولايات والبلدان لنقل المعلومات والأخبار من مواقعها ومن أفواه الناس ، لتكون لديه وفرة للمعلومات لتعينه فى إصدار القرارات .

وكل بند من تلك البنود فى حاجة إلى تفصيل ، فمثلا ديوان الأعمال والجبايات يقول عنه ابن خلدون : "اعلم أن هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك وهى القيام بأعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة من الدخل والخرج وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقرير أرزاقهم وصرف أعطياتهم فى إبانتها والرجوع فى ذلك إلى القوانين التى يرتبها

obeikandl.com

قومة تلك الأعمال وقهارمة الدولة وهى كلها مسطورة فى كتاب شاهد بتفاصيل ذلك فى الدخل والخرج مبنى على جزء كبير من الحساب لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال ويسمى بالديوان"

والأهم من تلك الأعمال التى قام بها عمر وتعتبر من الأوليات ، الأهم من ذلك هو سيادة القانون سيادة مطلقة ، فلا أحد فوق القانون ، ولا أحد بعيدًا عن الحساب ، حتى الحاكم نفسه يطلب من الناس أن يحاسبوه ويذكروا عيوبه "قال عمر : وهو على المنبر أنشدكم الله ، لا يعلم رجل منى عيبًا إلا عابه فقال رجل : نعم يا أمير المؤمنين فيك عيبان قال : وما هما ؟ قال : تديل بين البردين (أى تلبس قميصًا وتخليه وتلبس غيره) ، وتجمع بين الأدمين ، ولا يسع ذاك الناس . قال : فما أدال بين بردين ، ولا جمع بين أدمين ، حتى لقى الله ﷻ" .

لا امتيازات ولا صلاحيات لفئة دون فئة ، وليس هناك استثناءات ولا واسطات والمصلحة العامة لكل المسلمين المواطنين فوق أى مصلحة أخرى

"وخُطب عمر ومكاتباته وتصرفاته وأفعاله تؤكد على اهتمامه بوضع دستور يحد من سلطة الحاكم ويوضح حقوق المحكومين على الحكام ، وفى كل آرائه بدون استثناء كان يستشير من حوله ، النساء والأطفال حتى الأعداء ، (وكلا الدستور والبرلمان) قيد يمسك السلطة أن تجور على الناس أو تتحيف حقوقهم المشروعة فى الحياة ، أو إن شئت فكلاهما يمسك الحاكم أن يستبد به الهوى ، فيؤذى الناس فى أرزاقهم وحرياتهم التى استقر عليها الاتفاق ، والدكتاتورية داء العصر ، ناط به المصلحون والثائرون كل صنوف التخلف وجميع ما أصاب المسلمين من التأخر والانحطاط" [1]

١ - الفكر الإسلامى المعاصر – د/ حلمى مرزوق : (٨١) .

الاعتدال على الأمر والدوام والثبات :

هناك ظروف طارئة قد تدفع بالفرد أو الجماعة أو الأمة نحو اليمين أو نحو اليسار والتجارب التى خاضتها الأمم والحضارات على مدى التاريخ الإنسانى تؤكد أن كلا الأمرين لا يأتى بخير ولا نفع وإنما الخير كل الخير فى التوسط :

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ... ﴾(١)

والتوسط أو الاعتدال بين الأمور ليس بالأمر اليسير ، ولا هو بالأمر السهل فهو فى حاجة إلى قوة ومقاومة شديدة وصلبة كى لا تدفع الظروف الأمة أو الجماعة إلى تلك الجهة أو تلك الجهة .

وكل الأنسقة الفكرية مآلها إلى الزوال والفناء ؛ لأنها عجزتْ عن الاعتدال والتوسط وهذا هو السر فى أن الفكر الإسلامى هو أصلح فكر للإنسانية فى وقتها الحاضر وفى مستقبلها ، وليس هذا الرأى نابعا من تعصب أو تحيز ، ولكن المنطق العقلى والواقع الإنسانى الحاضر يحكمان بذلك ، فلا الفكر الشيوعى داوى أمراض الإنسانية ، وإنما زاد أمراضها استفحالا ، وجاء الوقت الذى نبذته الشعوب التى اتخذته عقيدة ، يلهجون بحمدها والثناء عليها والدفاع عنها ليل نهار ، والدعوة لها كل وقت وكل حين . ولا الفكر الرأسمالى نجح فيما فشلت فيه الشيوعية ، فها هى الشعوب التى تدين بهذا الفكر تصطلى بنيرانه ، والذى جعل صورة هذا الفكر تزداد بريقًا وتألقا فى عصرنا الحاضر أن الفئة التى تملك وتسيطر وتهيمن هى التى تدعو له وتسانده وتعضده لأنها الفئة الوحيدة المستفادة من هذا الوضع ، أما بقية الفئات والشعوب والأمم التى تعانى من شدة وطأة هذا النظام

١ - سورة البقرة : من الآية ١٤٣ .

والفكر فلا تملك ولا تسيطر ولا تهيمن ، لذلك فلا تملك سبل فضح هذا النظام والفكر ، حتى وإن ملكت تلك السبل ، فإنها مقضى عليها من جبابرة وطغاة الفكر الرأسمالى وعلى رأسهم أمريكا

كان عمر فى غاية الاعتدال ، اعتدال يصعب على أى إنسان أن يسير على نفس النهج ، فهو والى الفقراء واليتامى والأرامل والمساكين ، وكل تلك الفئات التى عضها الدهر بنابه ، ويجتهد أن تصل إليهم حقوقهم مستوفاة وكاملة ، وهو حرب على الأغنياء الذين اغتنوا من غير سبيل الحق ، وحرب على المحتكرين والمستغلين والمفسدين ، وهو فى نفس الوقت يحافظ أشد ما تكون المحافظة على ذاتية الفرد وحريته من سلطان الولاة أو سطوة الدولة ، وهو لا يرعى حقوق الأفراد المسلمين فحسب ، بل كل فرد فى الدولة الإسلامية مهما كان دينه أو جنسه أو لونه ، وقد قلنا فى كتابنا : "الفكر الإسلامى ومستجدات العصر" "والفرد فى الفكر الإسلامى ليست له مواصفات معينة كأن يكون عربيًّا أو أعجميًّا أو مسلما أو مسيحيا أو يهوديا ، أبيض أو أسود ، غنيا أو فقيرا ؛ الفرد فى الفكر الإسلامى هو الذات الآدمية التى تنتمى إلى جنس الإنسان ، وقد أحاطها الله بالتكريم والإعزاز

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ... ﴾[1]

والدليل على تكريم الإنسان تسخير كل ما فى السموات والأرض له ، وموقف الفكر الإسلامى وضحه عمر ﷺ أوضح تجلية حينما مرَّ بيهودى يتكفف الناس قال : (أكلنا شبيبته ونضيع شيخوخته ، اكتبوا هذا وأمثاله فى بيت المال) الدولة هنا إسلامية والحاكم مسلم ، والرجل يهودى طاعن فى السن ويعتبر عالة على المجتمع ، فهو يتكفف الناس ، فلا رجاء ولا نفع منه ومع ذلك يقول عمر : (اكتبوا هذا وأمثاله فى بيت المال)

١ - سورة الإسراء : من الآية ٧٠ .

وخرج من الحالة الفردية إلى مبدأ عام جعله قانونا ينتفع به اليهودى ، وكل من على شاكلته ، وذلك لأن عمر ينطلق من جوهر الفلسفة الإسلامية ومن منظور الفكر الإسلامى ومفهومه للفرد ذلك المفهوم الإنسانى العام الذى قلَّ أن نجد له نظيرًا فى أى فكر آخر"[1]

توفية الحقوق :

ليس هناك فى عرف عمر بدائل أو اختيارات عن تأدية الحقوق ، وليس هناك فى عرف عمر أن يُؤدى الحق على صورة من الصور ، فهو لا يكتفى بتأدية الحق بل يصل إلى أقصى صورة مستطاعة ، ويستفرغ الجهد الإنسانى فى ذلك ، سواء أكان هذا الجهد متعلقًا بذات الله ﷻ أم بالبشر .

تقويم المعوج :

لا يستطيع الحاكم أن يقوم أى معوج فى أمور دولته ، إن لم يقوم اعوجاج نفسه والذى سيقوم بذلك هم المحكومون ... الناس ... الرعية ، وأن يعطى لهم الحاكم أمانًا ، أن يصارحوه بأى اعوجاج يطرأ عليه ، ويطلب منهم تقويم اعوجاجه إن حدث اعوجاج . لا أظن أن هناك صورة أعظم من تلك الصورة التى تعبر عن قمة الحرية والعدل والديمقراطية "أيها الناس من رأى منكم فىَّ اعوجاجا فليقومه"

فيرد أحد الجالسين من عامة الناس : "والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا" .

ولا يطلب الحاكم ذلك إلا إذا كان يجتهد ما وسعه الجهد ألا يعطى فرصة لأى اعوجاج يطرأ عليه .

---

١ - الفكر الإسلامى ومستجدات العصر – محمود القلينى : (١٣٢ – ١٣٣) .

ولا يقول فرد من الناس ذلك إلا وهو يعلم أن حاكمه لا يمقت شيئا قدر مقته الاعوجاج حتى بشخصه .

حساب الزمن بالسنة والشهر والأيام :

هل من قبيل الصدفة أن يكون عمر أولَ من أرَّخ ، ووضع تاريخا للدولة ؟ فليس من المنطقى أن يكون هناك عقيدة جديدة ودولة ناشئة وأمة ناهضة وليس لها نظام وتاريخ على أساسه تنظم أمور عبادتها وكل أمور معاملتها "رفع إلى عمر صك مَحَلَّةٍ فى شعبان فقال عمر : أى شعبان هو ! الذى مضى ، أو الذى هو آت أو الذى نحن فيه ؟ ثم جمع أصحاب رسول الله ﷺ فقال لهم : ضعوا للناس شيئا يعرفونه .

فقال قائل : اكتبوا على تاريخ الروم . فقيل له : إنه يطول فإنهم يكتبون من عهد ذى القرنين وقال قائل : اكتبوا تاريخ الفرس كلما قام ملك طرح ما كان قبله فاجتمع رأيهم على أن ينظرواكمْ أقام رسول الله بالمدينة فوجدوه قد أقام بها عشر سنين فكتب أول التاريخ على هجرة رسول الله ﷺ "

قد كان هناك مناسبات كثيرة تصلح أن تكون بداية للتاريخ الهجرى مثل غزوة بدر بداية الصدام المسلح بين المسلمين والمشركين أو فتح مكة ، أو ميلاد الرسول ﷺ أو وفاته كلها مناسبات تستحق أن تكون بداية ، ولكن الأصلح والأكثر مناسبة هو يوم هاجر الرسول من مكة إلى المدينة ، لم تكن مجرد رحلة فى المكان أو فى الزمان ، ولكن كانت رحلة من الجمود والثبات والضيق واليأس إلى الحركة والانطلاق والفتح والأمل ، احتضن الإسلام المدينة واحتضنته المدينة ، وانساح الإسلام بعد ذلك ليضئ العالم من هذه البقعة الصغيرة ، ودرس تعلمته الإنسانية من سيدها ومعلمها ومربيها محمد رسول الله ... الصبر والتحمل والإيمان ومواجهة الشدائد والمحن بنفس تثق فى قدرتها وتثق فى عون ومدد الله

موقف وقفه الرسول ، وكلمة قالها اختزلت كل الدروس التى يمكن أن تتعلمها الشعوب والأمم فى أشد المواقف عسرًا وشدة : "كلمة قالها رسول اللّٰه ﷺ بعد أن انهار العالم من حوله وتزلزل ، وغلقت قوى الشر أمامه كل سبيل ، واجتثت بذور الأمل من الأرض بل توحدت كل تلك القوى وتكتلت وتكاتفت وتساندت لقتله وطاردته فى كل حدب وصوب ووجد هذا الإنسان الأعظم نفسه فى كهف ضيق ومظلم وأقدام الشر والفساد تجوس من فوقه مدججة بكل أسلحة الغضب والحقد والكراهية والتدمير

أكان رسول اللّٰه ﷺ قريبًا من اليأس والعجز ؟

أكان قريبًا من الخوف والحزن ؟

أكان قريبا من الغضب والكراهية ؟

كلمة قالها قصمت ظهر الباطل وحسمت كل المعارك التى حدثت وتحدث وستحدث بين الحق والباطل ﴿...لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ ...﴾[1]

كم ستقف الإنسانية طويلا طويلا أمام هذا الغار لتتعلم ممن داخله ، لحظات فى خضم الزمان ، ولكنها علت على كل الزمن ، صحراء قاحلة وسط عالم قفر فى جوف جبل فى جوف غار ، ولكنه أضاء ظلمات العالمين" [2]

نعم الهجرة كانت خطوطًا فارقة وسئمت علامات فاصلة بين عهدين ، بين مرحلتين بين نهاية عالم زهدته الإنسانية وسأمت منه وكرهته ، بكل ما يحمل فى جوفه من ظلم وفساد وباطلٍ وكفر ودمار ، وبداية عالم حنت إليه الإنسانية حنينًا فياضًا ، إلى عالم يبشر بالحق والنور والعدل والمحبة والإيمان والحياة التى لا ينحنى فيها الإنسان إلا لخالقه الواحد الأحد .

---

١ - سورة التوبة : من الآية ٤٠ .

٢ - عش حياتَكَ سعيدًا ولا تحزن – محمود القلينى : (٩١ – ٩) .

obeikandl.com

لذلك كان عمر موفقًا توفيقًا عجيبًا ونادرًا يوم اختار مناسبة الهجرة بداية لتاريخ الدولة أو لتاريخ العقيدة : "فالرجل الذى اختار يوم الهجرة بدءًا لتاريخ الإسلام ، قد كان أحكم وأعلم بالعقيدة والإيمان ومواقف الخلود من كل مؤرخ وكل مفكر يرى غير ما رآه .

لأن العقائد إنما تقاس بالشدائد ولا تقاس بالفوز والغلب : كل إنسان يؤمن حين يتغلب الدين وتفوز الدعوة . أما النفس التى تعتقد حقًّا ويتجلى فيها انتصار العقيدة حقا فهى النفس التى تؤمن فى الشدة وتتحمل من حولها صنوف البلاء

وليس يوم أحق بالتاريخ إذا من يومٍ هجر فيه النبى بلده

﴿ ... إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١)

ليقل من قال إن التوقيت بما قبل الهجرة وما بعدها كان توقيتًا معروفًا على عهد النبى ﷺ .

وليقل من قال إن دخول المدينة هو المقصود بالتاريخ من الهجرة وهو يوم عظيم .

ليقل من قال هذا أو ذاك فإن تاريخ النصر فى القرآن ظاهر "إذ هو ثانى اثنين فى الغار" .

وأن ابن الخطاب لنبيل ملهم الفؤاد – سواء كان هو المقترح أو مجيب الاقتراح حين نظر إلى غار (ثور) ولم ينظر فى التاريخ إلى نصر المدينة ولا إلى نصر أحد ولا إلى نصر فارس ونظر إلى تلك "الجنود التى لم تروها" وقد نراها نحن الآن يوم الدعوة لم يكن يوم

١ - سورة التوبة : من الآية ٤٠ .

الإسلام الأول ، لأن الدعوة كلمة يستطيعها كل إنسان ويستطيع النكول عنها بعد قليل أو كثير.

ويوم ميلاد النبى لم يكن يوم الإسلام الأول ، لأن ميلاد محمد لم يكن معجزة الإسلام كما كان ميلاد عيسى معجزة المسيحية ، ولأن محمدًا بشر مثلنا فى مولده ولكنه سيد الرسل يوم دعا ويوم نجا بالدعوة حيث تنجو وحيث تسود وحيث يكون امتحانها الأول فى قلب صاحبها وقلب صاحبه الصديق ، وهما اثنان فى الغار كذلك تؤرخ العقائد والأديان بالشدة تاريخها وليس بالغنائم والفتوح ، وإنها لشىء فى القلوب فلنعرفها إذن حين لا تكون إلا فى القلوب ، وحين يكون كل شىء ظاهرًا كأنه ينكرها وينفى وجودها وهى يومئذ من الوجود فى الصميم" (١)

العــدل :

فقد قلنا فيما سبق أنه من وضوح تلك الصفة أصبح عمر معيارًا للعدل ، أو هو الميزان الذى يوزن به صور العدل ، أو الميزان (الأم) الذى تضبط عليه بقية موازين العدل فهو لا يأمر بالعدل ولا ينشره فحسب ، بل يقوم على إصلاح وضبط معايير ومقاييس العدل وأعظم من هذا أن يدوم هذا الأمر ، فلا نفع فى عادل اليوم وظالم غدًا ، ولا جدوى من رجل يتحرى العدل اليوم ويقوم عليه اليوم لأن الظروف مواتية ويغض نظره عن جور وظلم غدا لأن الظروف لا تسمح بذلك . فعظمة وقوة عمر أن يظل ثابتا على هذا الأمر لا يتغير مهما تغيرت الظروف حوله ، فقد ظل عمر ثابتًا على ما عُرف عنه واشتهر به حتى آخر نفس من أنفاسه : "كان عادلا لأسباب كأنه عادل لسبب واحد لقلة التناقض فيه ، وربما كان تعدد

١ - عبقرية محمد – عباس العقاد : (١٨٠) .

الأسباب هو العاصم الذى حمى هذه الصفة أن تتناقض فى آثارها ، لأنه منحها القوة التى تشدها كما يشد الحبل المبرم فلا تتفكك ولا تتوزع ، فكان عمر فى جميع أحكامه عادلا على وتيرة واحدة لا تفاوت بينها ، فلو تفرقت بين يديه مائة قضية فى أعوام متباعدات لكنت على ثقة أن تتفق الأحكام كلما اتفقت القضايا .. كأنه يطبعها بطابع واحد لا يتغير" [1]

عماد ونظام الشىء :

الأقوال التى قيلت بعد موت عمر – وكلها أقوال خالية من أى شبهة من شبهات المجاملة أو المداهنة – توضح أن عمر كان عماد أمر الأمة أو الدولة أو الإسلام . "إن سعيد بن زيد بكى ، فقيل ما يبكيك ؟ فقال : على الإسلام أبكى إن موت عمر ثلم الإسلام ثلمة لا ترتق إلى يوم القيامة" .

"عن زيد بن وهب . قال : أتينا ابن مسعود فذكر عمر فبكى حتى ابتل الحصى من دموعه وقال : إن عمر كان حصنًا للإسلام يدخلون فيه ولا يخرجون منه ، فلما مات انثلم الحصن فالناس يخرجون من الإسلام" .

"عن الأعمش عن إبراهيم ، قال : قال عبد الله : إنى لأحسب عمر قد ذهب بتسعة أعشار العلم" .

"قال حذيفة : إنما كان مثل الإسلام أيام عمر ، مثل أمر مقبل لم يزل فى إقبال فلما أدبر فلم يزل فى إدبار" .

"عن أنس بن مالك . قال . قال أبو طلحة : والله ما من أهل بيت من المسلمين إلا وقد دخل عليهم فى موت عمر نقص فى دينهم وفى دنياهم" .

---

١ - عبقرية عمر – عباس العقاد (٣٤) .

" عن واصل عن الأحدب عن مجاهد قال : كنا نتحدث أن الشياطين مصفدة فى زمن عمر فلما قتل بثت فى الأرض" .

كلها أقوال قِيلت بعد استشهاد عمر، مما يدل على أنها لا مجاملة تحركها ولا خوف يبعثها ، وإنما هى خالصة للتاريخ ولوجه الله ، وكل الأقوال والشهادات أثبت التاريخ صدقها ، وأكدت الوقائع التى تلت ذلك مدى صواب وسداد حكمها وكأن تلك الأقوال ضرب من التنبؤ ، أو أن عمر نهض بأمر الحكم والخلافة نهوضا تجاوز كل توقعات من حوله وأدهشهم وأذهلهم بأعماله ومواقفه وفكره ورأيه بحيث إنهم استبعدوا أن يكون هناك نظير أو مثيل لعمر يأتى بعده ، بحيث إن الأمور سائرة إلى ما لا يحبون ولا يتمنون ، وقول عثمان بن عفان ﷺ "لن تلقى مثل عمر، لن تلقى مثل عمر، لن تلقى مثل عمر" خير شاهد على هذا حتى رأى خالد بن الوليد بعد أن وصل له قرار عزله ، وفى صدره أشياء من عمر خطب قائلا : "إن عمر بعثنى إلى الشام وهو لهم مهم ، فلما ألقى الشام بوانيه ، وصار سمنا وعسلا أراد أن يؤثر بها غيرى ويبعثنى إلى الهند فقال رجل إلى جانبه : اصبر اصبر أيها الأمير فإن الفتن قد ظهرت فقال خالد : وابن الخطاب حى ! إنما ذلك بعده"

لافتن ،لا اضطرابات ، لا خلافات ، لا منازعات ، وابن الخطاب حى لأنه عماد الأمر ونظام الحكم .

وقول السيدة عائشة أم المؤمنين – رضى الله عنها – خير شاهد على هذا "قالت : من رأى ابن الخطاب ، علم أنه خُلق غنى للإسلام كان والله أحوذيا نسيج وحده ، قد أعد للأمور أقرانها" .

ولاية الأمر:

ما معنى أن تتولى أمر قوم ؟

يا ليت كثيرًا من الحكام فى العصر الحديث يفهمون الأمر كما فهمه عمر ويدركونه كما أدركه عمر، فقد فهم أنه نائب عن الله ، فقد استخلف على هذا الأمر بفضل ومنة من الله ، وإن كونه خليفة للمسلمين لن يخرج عن قضاء وأمر ومشيئة الله إذن هو يحكم ويتولى الأمر بمراد الله ، ومراد الله هو الحق والخير والعدل ، وأن الحساب الأكبر بعد حسابه لنفسه وحساب المسلمين له هو حساب الله .

إذن فليعد كل سجلاته وأوراقه ورصيده من الأعمال لكى يعرضها على الله ومن هنا جاءت قوته ، وإنه لا يخشى فى الله لومة لائم ، وكيف لإنسان يخشى أحدًا وهو يعلم علم اليقين أن لا محاسب له غير الله ، وأن المقرر نتيجة هذا الحساب هو الله وتلك هى البوصلة التى وجهت عمر طوال حياته ، أو ذلك هو العاصم الذى عصم عمر أن يضل أو يزيغ

مما سبق يتضح لنا وبجلاء – أن عمر رجل قوى ، بكل معانى وصور القوة التى سبق ذكرها ، ورب سائل يسأل : فى أى جانب يكون الرجل القوى فى جانب الحق أم الباطل؟

ليس فى الباطل قوة ، والقوة لا تكون مع الباطل .

فهما نقيضان لا يجتمعان .

فإذا كان هناك قوة ، فليس هناك وجود للباطل ، لأن القوة صورة من صور الحق، ولم نجعل القوة صورة من صور الحق ؟ ولم لا نقول إن الحق هو القوة ، بل هو كل القوة ؟

وإذا وجد باطل وعاش زمنا ما فى مكان ما ، واستشرى ، فليس هذا بسبب قوته وإنما لأن هناك تفريطًا من أصحاب الحق ، هناك أزمة ثقة بين الحق وأصحابه ، لم يرتفعوا إلى مستوى الحق ، لم يستمدوا من الحق القوة والصمود ،ما يمكنهم من مواجهة ومجابهة ومحاربة الباطل ، لأن هناك ضعفًا فى إيمانهم بهذا الحق ، وبذلك تضعف

علاقتهم بالحق ، ويبتعدون عن الحق ، أو يبتعد الحق عنهم وبمرور الوقت تزداد المسافة بين الاثنين ، ويصل إلى أن يضيع الحق من أصحابه أو يضيع أصحاب الحق عنه .

وهنا يكون الباطل ، ومن الخطأ أن نقول إن الباطل قوى ، وإنما يتخذ الباطل أساليب الاستبداد والبطش والظلم والقهر والطغيان والقمع والتحكم ليحمى نفسه ويدعم وجوده ، ويؤصل دعواه ، ومن عجيب الأمر أن تلك الأساليب هى أول أسباب انهياره وفنائه والقضاء عليه .

من أجل هذا ، فإن الباطل مهما اتخذ تلك الصور والأساليب ، وغافل وخادع واستمر ، فإن هذا الاستمرار يسرع به نحو نهايته وهو قانون وضعه الله تسير عليه سنن الكون : (إن الباطل كان زهوقا) .

وعلى هذا ، فرجل قوى معناه أنه على الحق ، وهذا التماسك والعزة والنصرة لم يستمدها الرجل القوى إلا من الحق ، وقد يصادف وتكون هناك غفلة أو عماية أو غمامة على عين هذا القوى ، ولكن لن يطول به هذا الأمر فبعد قليل ستنقذه قوته وسترشده وستهديه ، وقد أدرك الرسول ﷺ بحسه النبوى ذلك ، وأيقن أن هذا الرجل القوى أمره صائر إلى الإسلام لا محالة ، وأن تلك القوة سيعتز بها الإسلام ، وأن هذا القوى سيعز بالإسلام متخطيًا حدود المكان ، ومتجاوزًا أبعاد الزمان .